عنوان الدراسة:

الثورات العربية والقضية الفلسطينية: جدلية التأثر والتأثير

إعداد: آلآء كراجة

المقدمة:

اندلعت شرارة الثورات العربية من تونس عندما أقدم محمد بو عزيزي الشاب التونسي على حرق نفسه، احتجاجاً على الأوضاع المعيشية الصعبة، فقامت الثورة التونسية التي عرفت بثورة الياسمين، وانطلقت شرارتها إلى مصر بما عرف بثورة 25 يناير في العام 2011، وامتدت بعدها لتصل إلى اليمن وليبيا والبحرين وسوريا، وكان لهذه الثورات أبعاداً سياسية وثقافية جمة، فأسقطت على إثرها أنظمة استبداد حاكمة وزعمائها، فهل كان للثورات العربية أبعاداً قومية؟ أم أنها اقتصرت على البعد القطري فحسب؟ وكيف تجلت مظاهر البحث عن القومية من خلال الثورات العربية في دول الثورات؟ وما موقع القضية الفلسطينية من الثورات تأثراً وتأثيراً؟ وما أثر التدخلات الخارجية والغربية على سير الثورات وتحديد أبعادها قومية كانت أم إسلامية؟ وهل بالفعل عززت الثورات العربية البعد الإسلامي على حساب استعادة البعد القومي؟

لذا تسعى هذه الدراسة للبحث عن إجابات التساؤلات السابقة، والنظر في أبعادها الحقيقية على مختلف المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية.

وتكمن أهميتها في البحث في الجوانب التي تمس القضية الفلسطينية بشكل مباشر، وتنعكس على الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وقضايا الوطن العربي عامة.

ويفترض أن القضية الفلسطينية وإن لم تشهد ثورة حقيقة باستثناء تلك التي طالبت "بإنهاء الانقسام"، إلا أنها تأثرت وأثرت في الثورات العربية، وعلى الرغم من استبشار البعض الذي يتقول بإحياء الثورات العربية المعاصرة، للبعد القومي للقضية الفلسطينية، رغم تغييب الشأن الفلسطيني عن ساحات الميادين ومطالب ثوراها، واقتصارها على القضايا القطرية أو المشكلات المحلية باعتبارها شؤون داخلية، بل حتى تراجع الاهتمام الإعلامي بها، إلا أن البعض الآخر يشير إلى أن هذه حالة مؤقتة، وهي مرحلة ستكشف لاحقاً عن مرحلة تالية تنادي بالبعد القومي، بالتوازي مع الدعوة لحل المشكلات والأزمات القطرية.

أولاً: هل ظهر البعد القومي في الثورات العربية؟

خرجت في خضم الثورات العربية التي انطلقت في تونس ومصر وليبيا، دعوات نادت باستعادة الوحدة العربية وإعادة إحياء البعد القومي، سواءً في ميادين الثورات، كتلك اللافتة التي كان يحملها أحد المتظاهرين المصريين في ميدان التحرير أيام ثورة 25 يناير والتي تقول "نحن على موعد يا فلسطين"، أو من خلال الدعوات التي تشكلت على موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك، والتي دعت إلى إعادة الوحدة العربية، ومن أبرزها صفحات نواة الوحدة العربية واتحاد الأفراد والجماعات المطالبين بالوحدة العربية وربيع الثورات العربية.

غير أن ذلك لم يكن رأي د. يوسف مكي، الذي أشار في مقالته حول "الثورات العربية ومستقبل العمل القومي"، المنشورة على موقع الفكر العربي القومي، أن ما يميز الثورات الحديثة، التي أخذت مكانها في تونس ومصر، وتطل برأسها في عدد آخر من البلدان العربية، أنها انطلقت من مطالب براغماتية، وأنها نأت حتى هذه اللحظة، عن طرح الشعارات القومية والوطنية، التي طبعت مرحلة النهوض في الخمسينات والستينات. فليس هناك حديث عن الوحدة العربية، أو تحرير فلسطين.

لكن د.مكي يضيف في ذات الوقت أن هذه الثورات، حتى وإن غيبت مرحلياً شعارات العروبة والقومية وتحرير فلسطين عن يافطاتها، ستكتشف حتماً من خلال فعلها النضالي، وحراكها السياسي، واندفاعها في تيار الحركة التاريخية، أن لا مفر أمامها من العودة إلى عمقها الاستراتيجي، وأن حل جل المشكلات التي واجهتها الأقطار العربية، لن يكون خارج دائرة الهوية والوعي العربيين والانتماء القومي[1].

وفي مقالة بعنوان: الثورات العربية وفلسطين: استعادة البعد القومي أم تعزيز البعد الإسلامي؟، وتحت عنوان فرعي "وطنية الثورة وقومية التداعيات" يتشارك د. إبراهيم أبراش مع د.يوسف مكي في ذات الفكرة، فيؤكد أن البعد الثوري وإن اتخذ بعداً وطنياً حتى الآن، إذ لم يرفع المحتجون أو الثائرون شعارات كبرى كتحرير فلسطين أو الوحدة العربية أو القضاء على إسرائيل وأميركا، بل لم يتم ترديد ولا شعار واحد ضد واشنطن وإسرائيل أو حرق العلمين الإسرائيلي والأميركي، كما كانت الحال مع الثورات أو الانقلابات العربية السابقة، لكن الثورات العربية سيكون لها تداعيات على المنطقة كلها، ولو بعد حين، لأن الملايين التي خرجت إلى الشارع وكسرت حاجز الخوف لن تعود إلى بيوتها خاوية الوفاض، ولأن رسالة الثورة وصلت إلى جميع الأنظمة العربية، وإلى الغرب وإسرائيل نتمنى أن تفهم الأنظمة الرسالة جيداً، وقبل فوات الأوان، لأن الجماهير؟ إن لم تحقق مطالبها بالتغيير الحقيقي بالطرق السلمية، فإن مصر والمنطقة العربية ستشهدان موجة من العنف المسلح ستدخل البلاد في دوامة من عدم الاستقرار، الأمر الذي سيتيح الفرصة أمام أطراف خارجية لتحدث فتنة وخراباً في العالم العربي، أكانت هذه الأطراف إيران، أم جماعات الإسلام السياسي المتطرفة كتنظيم القاعدة، أم إسرائيل، وواشنطن خدمة لسياسة الفوضى الخلاقة التي تخدم مصالح تلك الأطراف.

وحيث أن نتائج الثورات لا تضح بين لليلة وضحاها، بل هي عملية مستمرة ومتغيرة وبحاجة لفترة زمنية طويلة حتى تستقر مآلاتها، وتتحقق مآربها التي انطلقت من أجلها، كما أن أي ثورة لا بد أن تلتفت في بادئ الأمر لأولوياتها الوطنية، ومطالبها الداخلية، كما هو الحال في مصر على سبيل المثال، وهنا يبين د. أبراش أن كل ثورة تعبر عن قيم المرحلة وثقافتها ومتطلباتها، وبالتالي لا يتصور أو يتوقع أن تكون الثورات المعاصرة نسخة من الثورات السابقة لا من حيث القوى المحركة، ولا من حيث أهداف الجماهير التي قامت بالثورة، فبالنسبة إلى الحراك الشعبي العارم الذي يضع الشعوب العربية على أعتاب ثورة حقيقية، فالكاتب أبراش لا يتوقع أن تقوم القيادة الجديدة في مصر مثلاً – في حالة حدوث التغيير الذي تريده الجماهير بمباشرة خطوات

[1]. **بتصرف**. " **الفكر القومي العربي**". *الثورات العربية ومستقبل العمل القومي*. http://www.alfikralarabi.org (تاريخ الاسترجاع 10 تموز 2012)

دراماتيكية في السياسة الخارجية لمصر سواء من حيث العلاقة بإسرائيل أو بواشنطن والغرب، حتى إن شاركت في هذه القيادة جماعة الإخوان المسلمين، إذ ستطغى انشغالات الوضع الداخلي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على أي انشغالات أخرى.

ويوضح د. أبراش إن مما لاشك فيه أن الأيديولوجية القومية العربية والمواقف المعادية لإسرائيل كامنة، في عمق العقل الجمعي المصري، لكنها ليست من أولويات الجماهير التي لها مطالب ذات طابع وطني، وبالتالي، فإن التحول في توجهات الثورة ربما يحدث مع مرور الوقت، وهذا يذكرنا بثورة تموز/ يوليو 1952 التي كانت في بدايتها ثورة وطنية خالصة، وهو ما كان واضحاً في مبادئ الثورة، وقد أصبحت فيما بعد ذات توجهات قومية وثورية تحررية[2].

القضية الفلسطينية والبعد القومي للثورات العربية

على الرغم من استبشار البعض الذي يتقول بإحياء الثورات العربية المعاصرة، للبعد القومي للقضية الفلسطينية، رغم تغييب الشأن الفلسطيني عن ساحات الميادين ومطالب ثوراها، واقتصار تلك المطالب على القضايا القطرية أو المشكلات المحلية باعتبارها شؤون داخلية، بل حتى تراجع الاهتمام الإعلامي بها، إلا أن البعض الآخر يشير إلى أن هذه حالة مؤقتة، وهي مرحلة ستكشف لاحقاً عن مرحلة تالية تنادي بالبعد القومي، بالتوازي مع الدعوة لحل المشكلات والأزمات القطرية.

هذا ما أشارت إليه رانية عبد الرحيم المدهون في مقالتها "الثورات العربية والقضيَّة القوميَّة... صحوة أم تراجُع"، وأن من المفارقات المُلفِتة في عالمنا العربي اليوم؛ تراجُع القضية القومية المركزية؛ والمُتمثِّلة في القضية الفلسطينية؛ في الوقت الذي من المُفترض، والطبيعي، أن تتقدّم فيه هذه القضية؛ أو على الأقل تحتفظ بمكانتها التاريخيَّة في الخارطة السياسية العربيَّة.

باتت هذه الظاهرة واضِحة؛ لاسيما في الدول التي تمر بمرحلة ثورة؛ و لم تجتاز بعد مرحلة السيولة السياسية؛ بعدما تخلَّصت من قياداتها البائسة، وغدت في درب إعادة تخطيط هيكليتها الحزبية والسياسية. ومكمن المفارقة هنا؛ أن تراجع القضية الفلسطينية، لم يكن على مستوى العمل السياسي المرحلي فحسب؛ وإنما كان على المستوى الإعلامي أيضاً؛ الأمر الذي يحمل الكثير من التفسيرات؛ غير العشوائية[3].

وفي مقاله "الثورات العربية وفلسطين: استعادة البعد القومي أم تعزيز البعد الإسلامي؟"، يناقش الكاتب إبراهيم أبراش البعد القومي للثورات العربية وانعكاسه على المسألة الفلسطينية، حيث يقول: "لقد حدث تاريخياً تلازم ما بين القضية الفلسطينية والعالم العربي

---

[2]. **بتصرف**. "وكالة معاً الإخبارية". *الثورات العربية وصعود الإسلام السياسي وتأثيرهما على القضية الفلسطينية*. http://www.maannews.net (تاريخ الاسترجاع 15 تموز 2012)

[3]. "التجمع القومي الديمقراطي الموحد". *الثورات العربية والقضيَّة القومية... صحوة أم تراجع*. http://www.unitedna.net (تاريخ الاسترجاع 10 تموز 2012)

بحيث إن أي تحولات أو متغيرات كبيرة تحدث في العالم العربي إنما كانت تنعكس مباشرة على القضية الفلسطينية، فعندما تنتكس الحركة القومية والثورية العربية تنتكس القضية الفلسطينية، وعندما تنهض الحالة العربية تنهض معها القضية، فما كانت فلسطين لتضيع وتحدث نكبة 1948 لو لم تكن الحالة العربية عاجزة، بل متواطئة مع بريطانيا، وما كانت الحركة الوطنية الفلسطينية لتعرف نهوضاً مع حركة "فتح" وبقية القوى الوطنية في أواسط الستينات لولا حالة المد الثوري والتقدمي العربي، وفي المقابل، فإن الانتكاسات التي أصابت القضية الفلسطينية أخيراً غير منقطعة الصلة عن تراجع الحالة الثورية والتقدمية العربية منذ توقيع مصر اتفاقية كامب ديفيد، مع إسرائيل في سنة 1978 ثم انهيار النظام الإقليمي العربي بعد حرب الخليج الثانية، ومن هنا فإن أي نهوض وتغيير تشهدهما المنطقة سيكون لهما تداعيات على القضية الفلسطينية، لكن هذه التداعيات مرتبطة بالعوامل الاجتماعية والسياسية التي ستقود عملية التغيير وتتسلم مقاليد الحكم فيما بعد نجاح الثورة".

ويضيف: "لكن ارتباط القضية الفلسطينية بمحيطها بعد الثورات الجارية رهن بالقوى الرئيسية في الثورة، ولا يبدو أن هذه القوى ذات توجهات قومية وحدودية كما كانت الحال خلال الخمسينات والستينات والسبعينات، فالتوجهات الإسلامية واضحة وكامنة تنتظر الفرصة، وبالتالي ربما يعزز البعد الديني للقضية الفلسطينية الثورة في مرحلتها الأولى، ولا شك في أن الثورة العربية اقتصرت على العالم العربي، كما أن المشاعر والتوجهات القومية العربية حاضرة بشكل ما، غير أن ما هو ظاهر حتى الآن هو الطابع الوطني بملامح إسلامية فرضها الإسلاميون لقوة إعلامهم ومالهم وتنظيمهم، وهذا ما تراهن عليه حركة "حماس" في فلسطين، لكن ما نخشاه هو ألا تولي هذه القوى الإسلامية أهمية كبيرة في فلسطين عندما تنشغل بالحكم والسلطة، وفي جميع الحالات، فإن علينا الآن التعامل مع توجهات وعلاقات إسلامية وقومية مختلفة عما كانت عليه سابقاً، فمفردات كثيرة من إيديولوجيا الطرفين تغيرت، وقد تؤسس الديمقراطية لعلاقة تصالحية بينهما تدعم القضية الفلسطينية".

وفي الوقت الذي يصعب فيه على الفلسطينيين أن ينأوا بأنفسهم عن ما يجري من متغيرات من حولهم في الوطن العربي، فكل المجريات والتحولات لابد وأنت تنعكس على مسألة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، غير أنه من الأفضل أن لا يزجوا بأنفسهم في أي صراع أو تطور إقليمي، قد يطالهم منه ظلم جديد هم في غنى عنه.
ويستطرد أبراش تحت عنوان: الثورات العربية بين وطنية المطالب وقومية التداعيات، في ذات المقال السابق، أنه إن كان لابد من تأثير واقع على القضية الفلسطينية فإن ذلك مرتبط بما ستستقر إليه الأمور في بلدان الثورات، وبمن ستؤول إليه مقاليد السلطة حيث يقول: "وإذا كانت المحصلة النهائية للمد الثوري العربي هي أنه سيؤثر في القضية الفلسطينية، فإن التأثير سيختلف من دولة إلى أخرى، بل لا نستبعد أن تكون نتائج ثورة ما سلبية بالنسبة إلى القضية الفلسطينية، وفي جميع الحالات فالأمر يرتبط بالقوى الثورية، أو بتلك التي تستلم مقاليد السلطة بعد الثورة، وأيضاً بدرجة التدخل الخارجي في مجريات الثورة، فالغرب وخصوصاً واشنطن، يتدخل في الثورة الليبية، بينما إيران تتدخل في الثورة البحرينية".

وفي هذا السياق يوضح أبراش ضرورة التمييز بين التداعيات بعيدة المدى والتداعيات المباشرة، فالتداعيات الإيجابية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وتغيير الحالة العربية، ستكون بعيدة المدى، وحدوثها مرتبط بطبيعة القوى الصاعدة التي ستستلم مقاليد الأمور،

أما التداعيات قصيرة المدى، فالمقصود بها التداعيات خلال الفترة الانتقالية الفاصلة ما بين إسقاط النظام، أو خروج الناس إلى الشارع، وبناء النظام على أسس جديدة، وفي هذه المرحلة علينا أن نكون حذرين جداً لأنها مرحلة ستتسم بعدم استقرار سياسي سينتج منه فراغ أو ضعف أمني سيثيران الخوف لدى إسرائيل، الأمر الذي ربما يدفعها إلى اتخاذ خطوات استباقية في علاقتها بقطاع غزة، لأنها عندما انسحبت من داخل القطاع كانت تراهن على وجود نظام قوي في مصر ملتزم باتفاقية السلام وقادر على حفظ أمن حدوده مع القطاع ومع إسرائيل، إن حدوث حالة فراغ أمني في سيناء، علاوة على تغير نظام الحكم في مصر، هما مدعاة لقلق إسرائيل، ودافع لها كي تعيد حساباتها الإستراتيجية[4].

أثر القضية الفلسطينية في الثورات العربية

تناولت مجموعة من المقالات والكتابات علاقة الثورات العربية بالقضية الفلسطينية تأثراً وتأثيراً، خاصة الثورة المصرية التي ستنعكس مآلاتها على الشأن الفلسطيني، ليس في مسألة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي القائم فحسب، بل أيضاً على الشأن الفلسطيني الفلسطيني في موضوع الانقسام والمصالحة بين حركتي فتح وحماس ما بين الضفة الغربية وقطاع غزة، خاصة مؤخراً بعد أن أعلن فوز مشرح حركة الأخوان المسلمين د. محمد مرسي، رئيساً لجمهورية مصر.

وحيث أن القضية الفلسطينية لم تكن غائبة عن وجدان المواطن العربي، الذي كان يشعر بتقاعس الحكام العرب وتخاذلهم تجاه الفلسطينيين وقضيتهم العادلة، وقد تناول الكاتب الفلسطيني د.إبراهيم أبراش، مسألة "التأثير"، أي دور القضية الفلسطينية في نشوب الثورات وإن لم يكن هذا التأثير مباشراً، فيوضح في مقالته "الثورات العربية وفلسطين: استعادة البعد القومي أم تعزيز البعد الإسلامي؟"، وتحت عنوان القضية الفلسطينية: تأثير وتأثر. أن تأثير القضية الفلسطينية، وخصوصاً الممارسات الإجرامية الصهيونية بحق الفلسطينيين وعجز الأنظمة العربية عن مساعدتهم، فضلاً عن تواطئها مع العدو، وإن لم يكن مباشراً في هذه الثورات، لكن لا يذكر أن القضية الفلسطينية راكمت عبر السنين حالة من النقمة الشعبية على الأنظمة وممارساتها، فالجماهير العربية لم تنس أو تغفر للأنظمة اتخاذها موقف المتفرج على الإجرام الصهيوني خلال أعوام الانتفاضتين الأولى والثانية، و لم تنس أو تغفر لها صمتها بينما طائرات العدو ودباباته تقصف غزة وتحرقها، و لم تنس أو تغفر لها سكوتها وتواطؤها حين كان العدو يستوطن الضفة ويهود القدس ويدنس المقدسات، لقد كانت فلسطين حاضرة في ضمير الثوار ووجدانهم، وإن لم تكن العنوان الرئيسي لثورتهم أو على رأس سلم اهتماماتهم، وبالتالي، يمكن القول أن العلاقة بين الثورة العربية والقضية الفلسطينية كانت تأثيراً وتأثراً[5].

---

[4]. إبراهيم أبراش، " الثورات العربية وفلسطين: استعادة البعد القومي أم تعزيز البعد الإسلامي؟"، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد 87 (2011):11.

[5]. بتصرف. المصدر السابق.

.

وكان د. أبراش قد أشار إلى ذلك في مقالة أخرى له بعنوان "الثورات العربية وصعود الإسلام السياسي وتأثيرهما على القضية الفلسطينية" ومنها نورد "تاريخياً حدث تلازم ما بين القضية الفلسطينية ومحيطها العربي والإسلامي،حيث تزامن فكر النهضة العربية الإسلامية نهاية القرن التاسع عشر مع ظهور الحركة الصهيونية كما أن ظهور القضية الوطنية الفلسطينية بداية القرن العشرين لم يكن منقطع الصلة بظهور الحركة القومية العربية من جانب وبالمخططات الاستعمارية لتقسيم المنطقة العربية والهيمنة عليها من جانب آخر.

منذ ذلك التاريخ حملت القضية الفلسطينية دون غيرها من القضايا العربية نعت (البعد القومي للقضية الفلسطينية) وكان هذا البعد حاضراً طوال مسيرة القضية كما كان المسلمون ينظرون بقدسية لمدينة القدس وبعضهم يعتبر فلسطين وقفاً إسلامياً أو الأرض المباركة إلخ.

ويضيف د. أبراش أنه بالمقابل أثرت القضية الفلسطينية وصراع الفلسطينيين مع الاحتلال على المحيط العربي شعبياً ورسمياً، فالممارسات الإجرامية الصهيونية بحق الفلسطينيين وعجز الأنظمة العربية عن مساعدة الفلسطينيين إن لم يكن تواطؤهم مع العدو راكم عبر السنيين حالة من النقمة الشعبية العربية على الأنظمة وممارساتها. الجماهير العربية لم تنس أو تغفر للأنظمة وهي تقف موقف المتفرج على الإجرام الصهيوني خلال سنوات الانتفاضة سواء الأولى أو الثانية و لم تنس أو تغفر صمت الأنظمة وطائرات العدو ودباباته تقصف وتحرق غزة، و لم تنس أو تغفر للأنظمة صمتها وتواطؤها والعدو يستوطن الضفة ويهود القدس ويدنس المقدسات، لقد كانت فلسطين حاضرة في ضمير ووجدان الثوار وإن لم تكن العنوان الرئيس لثورتهم أو على رأس سلم اهتماماتهم. وبالتالي يمكن القول بأن العلاقة بين الثورات العربية والقضية الفلسطينية كانت تأثير وتأثر.

لكن استعادة ارتباط القضية الفلسطينية بمحيطها بعد الثورات الراهنة بات مرهوناً بالقوى الرئيسة في الثورة ولا يبدو أن هذه القوى ذات توجهات قومية وحدوية كما كان الحال خلال الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، فالتوجهات الإسلامية واضحة وكامنة تنتظر الفرصة وبالتالي قد تعزز الثورات في مرحلتها الأولى البعد الديني للقضية الفلسطينية ولكن دون رؤية إستراتيجية لهذا البعد[6].

ويتفق مع ذلك الكاتب إيهاب شوقي في مقاله "الثورات العربية، بين الأبعاد القطرية والقومية"، إذ يوضح أن قضية فلسطين والصراع العربي الصهيوني، كان من أكبر عوامل غضب الشعوب العربية من حكامها، حيث كان تواطؤ هؤلاء الحكام وضعفهم وعجزهم أمام المشروع الصهيوني، من أكبر عوامل الغضب وشكلت تراكماته عبر السنوات الماضية وما صاحبه من إحباط وكبت، جذوراً يعتد بها في هذه الانفجارات الشعبية التي أعلنت الثورة على أنظمة فرطت في عروبتها وتقاعست عن نصرة

---

[6]. "وكالة معاً الإخبارية". *الثورات العربية وصعود الإسلام السياسي وتأثيرهما على القضية الفلسطينية*. http://www.maannews.net (تاريخ الاسترجاع 15 حزيران 2012)

القضايا العربية العادلة، ويؤكد ذلك أن الثوار حرقوا العلم الصهيوني وبدا غضبهم على إسرائيل وأنصارها واضحاً ويعلن عن نفسه بمرور الوقت مما يؤكد استقرار هذا البعد في الضمير العربي وأنه سيظهر لا محالة ومهما طال الوقت[7].

لكن هذا كان له بعده التاريخي الذي تحدث عنه د.أبراش إذ أنه في أوج المد القومي العربي في النصف الثاني من القرن الماضي، كانت فكرة الوحدة العربية تحظى بقبول شعبي عارم وتشكل حالة ضاغطة على الأنظمة العربية لتتجاوب مع الفكرة بتجاوز المنطق القطري إلى رحابة العمل القومي الوحدوي. الإحساس بوحدة الانتماء والمصير والإدراك بالمخاطر المحدقة بالأمة العربية كانت عوامل تجعل من مطلب الوحدة العربية ضرورة قومية بل حياتية، ومع ذلك وبالرغم من أن الجماهير الشعبية والنخب والأنظمة كانت تتحدث عن الوحدة وضرورة تحقيقها، إلا أن الإيمان بالوحدة والسعي الصادق لتحقيقها لم يكونا عاملاً مشتركاً بين الجميع.

المشكلة لم تكن بالجماهير ولكن بالنخبة التي رفعت رايات الوحدة العربية ونصَّبت نفسها ناطقة باسم الأمة العربية ومنادية بتحرير فلسطين، بعض النخب القومية كانت منتمية حزبياً وفكرياً للفكر القومي الوحدوي دون استعداد للتضحية في سبيل تحققها، حيث كانت خلفيتها وأصولها الطبقية أو مواقعها الرسمية في الحكم تشدها نحو مصالحها الضيقة على حساب مصلحة الأمة، وكان حالها كحالة الشخص المصاب بالشيزوفرينيا أو ازدواجية شخصية، ومن هنا كانت خطورتها على المشروع القومي الوحدوي والقضية الفلسطينية أكبر من خطورة الشعوبيين وأعداء الوحدة العربية. وشريحة أخرى من (القوميين) سايروا الحس الشعبي الجارف برفع الشعارات القومية والوحدوية وتحرير فلسطين بل اعتبروا أن القضية الفلسطينية قضيتهم الأولى، ولكنهم في العمق كان يعملون كل ما من شأنه إفشال كل مسعى وحدوي بل وضرب القوى الوحدوية والتضييق عليها بطرق غير مباشرة. والتصادم مع حركة التحرر الفلسطينية والتضييق عليها.

أيضا لم يكن الخلل بالوحدة فكرة وهدفاً، فهي فكرة نبيلة، ولا بشعار قومية القضية الفلسطينية، ولكن الخلل كان في أدواتها من أحزاب وأنظمة، وكان الفشل أمراً حتمياً لعدم الاتفاق على الثوابت والمواقف قبل تحقيق الوحدة، والنتيجة، لا الوحدة العربية تحققت ولا المصلحة القطرية والتي نعتوها بالمصلحة الوطنية تحققت ولا فلسطين تحررت، النخب الحاكمة بما فيها النخب القومية، كانت المستفيد الوحيد، واليوم تدفع الأمة العربية ثمن فشل التجارب الوحدوية وتراجع الفكر القومي، والثمن الأبهظ هو أن الوحدة الوطنية أصبحت مهددة، بمعنى أن المسار الوحدوي أصبح يسير بشكل معكوس، فمن وحدة المجزأ إلى تجزئة المجزأ[8].

---

[7]. "التجمع القومي الديمقراطي الموحد". *الثورات العربية والقضيَّة القومية... صحوة أم تراجع*. http://www.unitedna.net (تاريخ الاسترجاع 10 حزيران 2012)

[8]. **بتصرف**. "وكالة معاً الإخبارية". *الثورات العربية وصعود الإسلام السياسي وتأثيرهما على القضية الفلسطينية*. http://www.maannews.net (تاريخ الاسترجاع 15 حزيران 2012)

الثورات العربية...بعد قومي أم صعود إسلامي؟

لقد بات واضحاً، بما لا يدع مجالاً للشك أن الثورات العربية التي قامت بها الشعوب وجاءت نتيجة لعقود من القهر والقمع والاستبداد من قبل الأنظمة الحاكمة، تحولت لمنبر للتيار الإسلامي والجماعات الإسلامية، التي قُمعت هي الأخرى طوال فترة حكم الرؤساء السابقة. وكثيراً ما يعبر المحللون عن خوفهم وقلقهم من هذا المجيء الإسلامي، بمرجعياته الأصولية والراديكالية تحت شعار الإسلام هو الحل، على تراجع مشروع استعادة الوحدة العربية على أساس قومي، بما يضعف المشروع الوطني الفلسطيني.

وما بين هذه الجدلية القائمة بين البعد الوطني والقومي في الساحة العربية والفلسطينية وما بين جدلية الوطني والإسلامي وتأثيرهما على القضية الفلسطينية، خرجت الكثير من الكتابات التي سعت إلى تفكيك وتحليل خطاب الثورات العربية واستشفاف هذه الأبعاد.

وقد بحث د. أبراش هذا التحول من ثنائية الوطنية والقومية لثنائية الوطنية والإسلام وتأثيره على القضية الفلسطينية، إذ بين أنه مع تراجع الحركة القومية العربية ومع أزمة اليسار المتفاقمة تزايدت شعبية جماعات الإسلام السياسي التي كانت في حالة خمول والاشتغال على التوغل اجتماعياً واقتصادياً، وبدأ الخطاب الإسلامي يطغى على الخطاب القومي وحتى الوطني، وكما وظف القوميون القضية الفلسطينية وظفها الإسلاميون حيث كانت المظاهرات والمسيرات التي ينظمها الإسلاميون دعماً لفلسطين وتنديداً بالممارسات الصهيونية فرصة لتبرز هذه الجماعات قوتها في الشارع ولتستقطب مزيداً من الأتباع. من جهة أخرى وفي خضم صراع الغرب مع جماعات الإسلام المتطرف وخصوصاً بعد تفجيرات 11 سبتمبر 2001، تفتقت العقلية الاستراتيجية لواشنطن عن مخطط لضرب جماعات الإسلام السياسي المتطرف وخلق بلبلة وفوضى داخل العالم العربي والإسلامي، وهذه الخطة تقوم على استيعاب الإسلام المعتدل ومطالبة الأنظمة العربية بإشراكهم في الحياة السياسية، وهذا ما جرى في وقت متزامن تقريباً في مصر والمغرب والأردن منتصف العقد الماضي.

بالرغم من أن الديمقراطية يمكنها استيعاب كل التيارات والقوى السياسية من وطنية وقومية وعلمانية وإسلامية، إلا أن بعض تيارات الإسلام السياسي تعاملت بحذر مع النهج الديمقراطي وتعاملت مع الديمقراطية الرسمية، أي الديمقراطية الموجهة من النظام دون أن تتخلى عن ثوابتها ومرجعيتها الدينية، مما جعل مشاركتها في العملية الانتخابية والديمقراطية لا تؤسس على قناعات راسخة بقدر ما هي غاية تهدف لتوظيف مساحة الحريات التي أُجبرت الأنظمة على منحها للجمهور، لتشرعن وجودها وتبعد عن نفسها تهمة الإرهاب[9].

[9]. المصدر السابق.

وهنا يكمل د. أبراش تحليله موضحاً أن انخراط الإسلاميين في الحياة السياسية الرسمية لم يكن عن قناعة بالنهج الديمقراطي فإن ما تسمى بالثوابت والمرجعيات الوطنية باتت محل خلاف وخصوصاً بعد الثورات وخصوصاً في مصر، فالمرجعية الفكرية اليوم لغالبية تيارات الإسلام السياسي هي الفكر الديني (قرآن وسنة واجتهادات السلف الصالح) والأمة هي الأمة الإسلامية والهوية هي الهوية الإسلامية والدولة هي دولة الخلافة الراشدة، وأصبحت الثنائية التي تشغل الحقل السياسي العربي والإسلامي اليوم هي الإسلامي والوطني، مع تسطيح وتعويم كبير لمفهوم الإسلامي (الحركات الإسلامية) ومفهوم الوطني، بل يمكن القول بأن ما يبدو على السطح من استقطاب بين المنتمين لكلا التيارين لا يستطيع أن يخفي الخلافات داخل كل تيار وهي خلافات قد تكون أوسع مما هي بين التيارين وبعضهما البعض.

وجدت قطاعات لا يستهان بها من الجماهير العربية في الإسلام الإطار الذي يمكن أن يمثل الجدار الأخير في مواجهة (الأعداء) والمرجعية المُوحدة لما هو مشترك بين الجماهير العربية والإسلامية، إلا أن نفس المشكلة التي واجهت الحركة الوحدوية القومية تواجه اليوم فكرة الوحدة الإسلامية، فوحدة المرجعية الدينية–حتى هذه عليها خلاف– لا تعني وحدة المرجعية السياسية للمسلمين أو حتى وجود مرجعية سياسية متفق عليها، حيث أن الإسلام السياسي منقسم على نفسه في البرامج وآليات العمل وفي موقفه من العمل الوطني، فمن أبن لادن وتنظيم القاعدة الذي لا يؤمن بالعمل الوطني أو بالنضال السياسي القطري، إلى جماعة الإخوان المسلمين التي بلورت أخيراً نوعاً من المصالحة ما بين العمل الإسلامي ألأممي والعمل الوطني، وما بينهما حركات إسلامية متعددة الاتجاهات والتصورات.

والسؤال الذي يفرض نفسه، هل يمكن تحقيق وحدة الأمة بالإطار الإسلامي حيث فشل تحقيقها بالإطار القومي العربي؟ وهل يمكن تجاوز الخلافات بل التناقضات بين متطلبات واستحقاقات وآليات العمل الوطني من جهة واستحقاقات وآليات العمل السياسي التي تنتهجه الجماعات الإسلامية؟. وماذا بالنسبة للقضية الفلسطينية؟ هل سيتم الانتقال من شعار (الوحدة العربية الطريق لتحرير فلسطين) إلى شعار (الوحدة الإسلامية الطريق لتحرير فلسطين).

للإجابة عن ذلك يستحضر الكاتب د. أبراش مقومات وموجبات أو مبررات الوحدة في الحالتين ومعيقات تحققهما فيورد بأن عديد من القوميين والإسلاميين تناولوا باستفاضة العلاقة بين القومية والإسلام، وغالبية هؤلاء اتفقوا على عدم وجود تناقض حتمي بين الطرفين، ويعتقد بأن حالات التصادم التي وقعت بين الطرفين كانت تندرج في إطار الصراع على السلطة أكثر مما كانت صراعاً بين أيديولوجيات، فكل من الإيديولوجيتين تنتمي لمنظومة مختلفة، الإسلام يمكنه أن يوحد الشعوب عقائدياً ولكن من الصعب عليه توحيدهم جغرافياً وسياسياً، ويعتقد بأن شعارات الوحدة الإسلامية الذي ترفعه بعض الجماعات الإسلامية هو أقرب لمفهوم الأممية الذي رفعته الأحزاب الشيوعية والاشتراكية، ليس من حيث المحتوى الإيديولوجي بل من حيث الوظيفة الأيديولوجية وهي توحيد وتقارب الشعوب إيديولوجيا، أما توحيدها سياسياً وجغرافياً فالأمر يحتاج للدخول في مواجهة مباشرة ليس فقط ضد الأنظمة والنخب الحاكمة بل ضد النظام الدولي القائم من قوانين وعلاقات ومنظمات. أما الفكر القومي وحركاته السياسية فيمكنها بل مطلوب منها توحيد أبناء الأمة، سياسياً وجغرافياً في إطار دولة قومية، وهذا هو مبرر وجود الفكر القومي وقد أنجز الفكر القومي هذه المهمة في أكثر من مكان في العالم إلا العالم العربي.

المشكلة المطروحة اليوم ليست علاقة القومي بالإسلامي، فالقومي- حركات ونظم- أضعف من أن يواجه المد الأصولي، وهذا لا يعني نهاية الفكر القومي الوحدوي أو التخلي عن حلم الوحدة العربية، بل إقرار واقع أن الأنظمة القومية وصلت لطريق مسدود والحركة القومية بشكل عام أصابتها حالة من الترهل أو الإحباط، وكثير من منتسبيها انخرطوا إما بالعمل الوطني الديمقراطي أو تحالفوا مع الإسلام المعتدل. المشكلة اليوم هي علاقة التيار الإسلامي بالقوى الوطنية من علمانية وديمقراطية والتي تشتغل على ثوابت ومرجعيات لا تتفق عليها القوى الإسلامية. لقد تجلى هذا التعارض بل التصادم الدموي أحياناً قبل الثورات العربية في: الجزائر، مصر، تونس، الأردن، المغرب، وفي فلسطين ولبنان. العمل الوطني يعني وجود تحديات ومهام وثوابت وطنية تحتاج لمعالجات وطنية، بمعنى أن القرار بهذه الأمور يجب أن يكون قراراً وطنياً لا يخضع لأي مرجعية خارجية حتى وإن كانت دينية، فلا يمكن أن تكون وطنياً وقرارك خارج الوطن، وهذا يتطلب (توطين) الجماعات الإسلامية سياسياً لا دينياً، بمعنى أن تصبح الجماعات الإسلامية في كل بلد جزءاً من المشروع الوطني لا أن يُلحق المشروع الوطني بأجندة الجماعات الإسلامية وخصوصاً الأُممية منها كجماعة الإخوان المسلمين وتنظيم القاعدة.

وأخيرا لا يعتقد د أبراش بوجود تناقض حقيقي ما بين العمل من أجل الوطن –الدولة الوطنية- والعمل من أجل القومية والوحدة العربية والعمل من أجل وحدة وترابط الأمة الإسلامية عقائدياً، والمشكلة هي ترتيب الأولويات وتنسيق المهام حسب خصوصية كل بلد وحسب تحديات كل مرحلة، فمثلاً لا يمكن الحديث عن الوحدة العربية فيما أقطار عربية تعيش صراعات وحروب طائفية وعرقية تهدد وحدة نسيجها الاجتماعي والوطني، كما لا يمكن الانتقال لوحدة الأمة الإسلامية حول مرجعيات سياسية واجتماعية واقتصادية، فيما لم نتمكن من تحقيق ذلك بين الدول العربية التي يجمعها، بالإضافة إلى المرجعية الدينية، وحدة اللغة والعادات والتقاليد والتاريخ المشترك؟ لقد حدث التصادم ويمكن أن يحدث ولكن ليس بين انتماءات حقيقية بين هذه الدوائر بل بين نخب توظف هذه الانتماءات من أجل الوصول للسلطة، وفي هذه الحالة تصبح السلطة هي سبب الصدام وليس الانتماءات بحد ذاتها[10].

ويتشارك د. أبراش مع د. عادل سمارة في بحثهما في مسألة صعود الإسلام السياسي، د. عادل سمارة وفي مقالته المنشورة في مجلة كنعان "ثورة وثورات مضادة تناقض الصحوات وتآلفها ضد العروبة" يقول إن لكل إسلام صحوة إلا إسلام العرب فيشير د. سمارة إلى أن من مظاهر أحداث وتطورات الوطن العربي أن كل شيء يدور ويدار وبقصدية واضحة باسم الإسلام، لذا نشهد أنواعاً متعددة من الإسلام السياسي: الإسلام الوهابي/ النفطي والإسلام السياسي الأميركي والإسلام السياسي التركي (الطوراني) والإسلام السياسي الإيراني، الأمر الذي في تعدده يدفع للسؤال: أي منهما هو الإسلام السياسي الأقرب إلى الإسلام الحقيقي، وليس أي هو الإسلام الحقيقي، وماذا لو فوجئنا بصحوة مسيحية؟ وهي على ما يبدو تستثار في مصر؟ كيف سوف تتلاقى

[10]. المصدر السابق.

.

الصحوتان أو الصحوات!!! ألا نلاحظ أن هيلاري كلينتون بعد صحوة "أولاد هيلاري" تنتقل الآن إلى صحوة مسيحية حيث تتبنى المسيحيين العرب، شاءوا أم أبوا!
صحيح أن الإسلام السياسي الإيراني هو أكثر راديكالية وأقرب إلى الإسلام السياسي المقاوم، ولكنه إسلام مأخوذ بالقومية الفارسية وهو موقف لا يحصره في إيران بل يحاول التأثير على بعض العرب بتطعيمهم بالطائفية، فهو يشارك الإسلامات الأخرى تجاهل البعد العربي في الحراك الذي يحصل وكأن الشعب الذي ينتفض ليس عربياً!

لقد اتضح موقف هذه "الإسلامات" من أحداث ليبيا، فلم يكن نظام القذافي ضد الإسلام، كما كان قد ساوم المركز الامبريالي كثيراً في العقدين الأخيرين، واتجه كثيراً إلى إفريقيا بعيداً عن الموقف القومي، ولكن يبدو أن الإسلامات المذكورة كانت تستهدفه لوجود البعدين القومي والإفريقي فيه، وهما بعدان مضادان للامبريالية بالفطرة والضرورة، لقد وقفت جميع قوى الإسلام السياسي، عبر فضائياتها على الأقل، ضد ليبيا رغم أن من سرقوا الثورة الشعبية الليبية منذ أيامها الأولى هم عملاء علانية للناتو الذي يقوم بحرق البلد بطائرات أربعين دولة.

ويشير د. سمارة في هذا السياق أن المهم هو قناعتهم بالتناقض مع القومية العربية بخلاف كافة شعوب الدول المسلمة حيث لا يقيم الإسلام السياسي فيها تناقضاً مع قومياتها، وهذا يؤشر إلى دور موروث استعماري وغربي صهيوني غرس لدى قوى في الوطن العربي. وحبذا لو كان الإسلام المقاوم هدفه فقط تجريد العرب من شرف كونهم أمة الإسلام الرئيسية، بل يعتقد د.سمارة أن الهدف هو تدمير القومية العربية للحيلولة دون النهضة العربية والوعد بنهضة إسلامية إذا ما اتفق عليها المسلمون لن يسمح بها المركز الرأسمالي الغربي الذي يدعم إسلاميين اليوم ويغذيهم بهذا الوهم، وربما كانت تجربة القاعدة شاهداً، ومع ذلك تتكرر في ليبيا. إن ما سمي بالصحوة الإسلامية (بطبعاتها الشيعية والسنية والوهابية والتركية والأميركية وغيرها) في أشكال كثيرة منها هي حالة ردة عن الإسلام وعن المجتمع":

- لا يمكن أن تكون هناك صحوة إسلامية تتحالف مع الولايات المتحدة ضد دولة عربية مسلمة أو مع تركيا التي هي قاعدة متقدمة للأطلسي ضد العرب والمسلمين، أو تعادي أمريكا في حالة إيران وتبارك الاحتلال الأمريكي لليبيا.
- إن الإسلام السياسي الذي يعادي الأمة العربية لن يكون حريصاً على المجتمع العربي، بل سيقابل شعبنا بالانقسام والإرهاب.
- إن التعصب الطائفي المتبادل في الإسلام السياسي بين سني وشيعي لن يتوقف وستشارك فيه الإسلامات الطورانية التركية المتراكبة مع كونها سنية ومع كونها أطلسية، ناهيك عن الإسلام الوهابي والأمريكي...إلخ، ولا ندري أية قوات ردع سوف تمنع تذابح هؤلاء؟

إن كافة أنواع التحركات في الوطن العربي اليوم هي عربية، سواء منها الثورية أو المأجورة، ولكن الحديث الإعلامي متجه وجهة واحدة، هي وجهة وصف كل ما يحصل بالصحوات الإسلامية، هل إغفال البعد العربي، وهو البعد المؤسس أمر مقصود؟

ما علاقة هذا باستهداف أنظمة ليبيا وسوريا؟ هل الإسلام صحيح في كل مكان ما خلا هذين البلدين؟ أم أن الثورة المضادة، بقيادة الولايات المتحدة، تستهدف البعد القومي العربي.

تجدر الإشارة إلى أن تحالف الإسلام السياسي غير المقاوم هو بمثابة تبعية منه للمركز الإمبريالي، هو استخدام لهذا الإسلام طبقاً للموقف والظرف، فالمركز هو الذي يعطي المؤشرات لهذا النوع من الإسلام متى يتحرك ومتى يتوقف، لقد وقف المركز ضد إسلاميي الجزائر حينما كان وجودهم في السلطة في غير مصلحته، بينما نراه اليوم يعقد الصفقات مع الإخوان المسلمين في مصر ويؤاخي القاعدة في ليبيا، ويتبنى الإخوان المسلمين في سوريا ويقيم لهم قاعدة في تركيا الأطلسية والمسلمة معاً، هل الدرع الصاروخي في تركيا لحماية أقباط مصر؟ وكيف تقبل الصحوة الإسلامية التركية أن تكون قاعدة ضد مسلمي إيران وضد العرب كمسلمين في معظمهم؟[11].

التدخلات الخارجية وركوب موجة الثورات

رغم أن أحداً لم يستطع التكهن أو التوقع بانتفاض الشارع العربي وقيادته لثورات عربية انتقلت شرارتها كالنار في الهشيم في عدد من الدول، فقلبت الموازين وأطاحت بعدد من الحكام، وما زال بعدهم ينتظر، إلا أن ذلك لا يعني أن الغرب الذي فوجئ كما فوجئ العرب أنفسهم بهذه الثورات، لم يسعى لركوب موجة الثورات لحرفها عن مسارها الصحيح، أو على أقل تقدير حصد نتاجها لنفسه، والبحث فيها عن مكان يضمن له مصالحة وأجنداته التي ظلت قائمة ومعمول بها على مدار العقود الماضية من قبل السلطات التشريعية.

وفي كل الأحوال تداعيات الثورات ستعيد ترتيب التوازنات والعلاقات العربية مع الغرب وتهدد مصالحه ونفوذه.

وهذا ما أشار إليه د. أبراش إذ أنه لا غرو بأن القوى المعادية لوحدة الأمة العربية ما زالت قائمة، ويقصد هنا تحديداً الولايات المتحدة وإسرائيل وأنظمة حكم ونخب سياسية. وحيث أن الأوضاع العربية ازدادت تدهوراً بحيث باتت أكثر سوءاً عما كانت عليه عندما كان الفكر القومي يدغدغ مشاعر الجماهير، فلا قطر عربي يخلو من مشاكل اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، وأخطر هذه المشاكل هو تفشي النعرات الطائفية والعرقية التي تهدد وحدة النسيج الاجتماعي والثقافي لكل قطر، وعودة الاستعمار مجدداً للمنطقة سواء كان استعماراً مباشراً أو غير مباشر وهذا الأخير أخطر من الأول...، لكن ومع ذلك، تجددت التطلعات الشعبية للملمة شمل الأمة ومواجهة ما تعتبره تهديداً لوجودها وكينونتها، وعادت بعض مفردات الخطاب الوحدوي، ولكن هذه المرة على أساس ديني وليس قومي[12].

ويورد د. أبراش في ذات السياق مثالاً على ذلك، لكن في مقال آخر وتحت عنوان الثورات العربية بين وطنية المطالب وقومية التداعيات."فمثلاً، على الرغم من أهمية الثورة التونسية وما حملته من دروس، فإن تداعياتها على السياسات الخارجية لدول المنطقة،

---

[11]. عادل سمارة، "ثورة وثورات مضادة تناقض الصحوات وتآلفها ضد العروبة"، مجلة كنعان، عدد 147(2011): 6-7.

[12]. **بتصرف**. "وكالة معاً الإخبارية". *الثورات العربية وصعود الإسلام السياسي وتأثيرهما على القضية الفلسطينية*. http://www.maannews.net (تاريخ الاسترجاع 15 حزيران 2012).

وعلى الصراع العربي – الإسرائيلي، بقيت محدودة، ليس لأن الثورة التونسية ثورة إصلاحية وطنية فحسب، بل لأن الجغرافيا السياسية ودور تونس في سياسات الشرق الأوسط والعالم يبقيا محدودين، ومن هنا نلاحظ كيف رحبت واشنطن وأوروبا والعالم بثورة الشعب التونسي، ولم تجر أي محاولات للتأثير في مجريات هذه الثورة، أما في مصر فالعالم ينظر إلى ما يجري ويتعامل معه بشكل مختلف، ذلك بأن الوضع لم يستقر فيها بعد، وربما تحدث مفاجآت تخرج الثورة عما كان يريده الشباب.

وفي متابعة للحالتين التونسية والمصرية، فإننا نلاحظ أن أي تغيير جذري في النظام السياسي في مصر سيكون له انعكاسات إقليمية ودولية، وسيعيد خلط الأوراق، وخصوصاً في ملف الصراع في الشرق الأوسط، وبالتالي فإن الحسابات السياسية والإستراتيجية المرتبطة بالمصالح لها الأولوية على حسابات الديمقراطية وحقوق الإنسان، أما في تونس فالغرب يتعامل مع الثورة فيها كقضية ديمقراطية وحقوق إنسان بالدرجة الأولى من دون تجاهل وجود حسابات إستراتيجية على المدى البعيد.

وإذا كانت الثورة في كل من تونس ومصر موجهة ضد أنظمة حليفة لواشنطن وغير معادية لإسرائيل، وتندرج في إطار ما يسمى معسكر الاعتدال، الأمر الذي يرفع سقف توقعات القوى المعارضة للغرب، فإن الثورة امتدت إلى أنظمة من معسكر الممانعة أو قريبة منه كسورية وليبيا، وهو ما يدفع إلى التساؤل عن طبيعة القوى التي ستتسلم مقاليد الأمور في حالة انهيار هذه الأنظمة، وعن طبيعة علاقتها بالغرب وإسرائيل، وقد رأينا كيف باتت الثورة الليبية تحت رعاية حلف الأطلسي والأمم المتحدة وحمايتها"[13].

من جهته يوضح د.عادل سمارة في حديثه عن الثورة المضادة أنها تركز على حصر ومحاصرة الحراك في أي قطر عربي داخله سواءً من حيث الشعارات أو التفاعل ما بين قطر وآخر وهذا يكشف استهداف البعد العروبي والمشترك القومي الذي تشكل الطبقات الشعبية قوته الرئيسية والتي هي وحدوية واشتراكية بمصلحتها وطبيعتها، وإن كان لا بد من تطوير وعيها السياسي الوحدوي الذي جرى طمسه عبر العقود الطويلة من القطرية والتبعية وتجويف الوعي وتجريف الثروة.

ويقول: "بيت القصيد أن الغرب أو عموم الثورة المضادة يستميت كي لا يكون اتجاه الوطن العربي توحيدياً، بل مزيداً من التجزئة. لذا، يتم تعزيز التفكيك والدفع باتجاه تفكيك أكثر وأعمق وتغطية ذلك بمشترك يبدو إيجابياً ولكنه لا يحقق الوحدة، بل يخلق وحدة سراب، أي تعزيز توجه الإسلام السياسي الذي لا يمكنه توحيد الأمة العربية، بل يرجئ ذلك كي يتحقق ضمناً عبر توحيد مليار ونصف مسلم موزعين على عشرات القوميات حيث كل واحدة منها موحدة ذاتياً باستثناء العرب. هذا ناهيك أن العرب النصارى ليسوا مسلمين فماذا ستفعل بهم الوحدة الإسلامية حين تأتي؟ هذا الشعار السرابي بتوحيد المسلمين بسبب تعددهم القومي وتبعية معظم أنظمتهم للغرب الرأسمالي وتباعدهم الجغرافي وتناقض مصالحهم الاقتصادية وإشباعهم بالإثنيات والطوائف...إلخ، يضع العرب في برزخ خطر بمعنى، أن ينتظر كل قطر أو كيان عربي وحدة الأمة الإسلامية، بينما لا تنتظر ذلك

[13]. إبراهيم أبراش، " الثورات العربية وفلسطين: استعادة البعد القومي أم تعزيز البعد الإسلامي؟"، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد 87 (2011): 9.

لا إيران ولا تركيا ولا باكستان ولا نيجريا ولا إندونيسيا...كل أمة منها متحدة وتؤمن بالله! فلماذا لا يحق لنا أن نكون مثلهم؟"[14]

هنا نستوضح أنه لابد من الاقتناع والتصديق بأن تاريخ العلاقة مع الغرب الرأسمالي هو تاريخ صراع: عدوان من جانبه ودفاع من جانبنا، وهنا يتوجب تصويب الأمور قبل كل شي.

في رأي د. سمارة أنه لا بد من القطع النهائي مع هذا الغرب، أي اعتبار كل ما يتعلق بمؤسساته الرسمية خطراً محدقاً، سواء المؤسسات العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية، نحن في حالة حرب مع عدو يقوم بالحرب بتنوعاتها. وعليه، فإن المثقفين أو الساسة العرب الذي يثرثرون بسطحية عن ازدواجية المعايير عند الغرب إنما يحومون داخل إطار رسمه الغرب لهم ليس أكثر، فالحديث عن ازدواجية معايير الغرب هو ضمناً اعتبار الغرب طيباً وبريئاً ومستقيماً وأن الاستثناء هو سقوطه في ازدواجية المعايير! وبالتالي فتصحيح مساره ممكناً! فالعلاقة مع الغرب الرأسمالي علاقة تناحرية بنفس مستواها مع الصهيونية، وعليه، فإن الفكاك مع هذا الغرب لن يكون اقتصادياً وحسب بل فكاك مع الخطاب كذلك.

إن استشارة المتعصبين دينياً تحت غطاء الصحوات، على تنوعها وتناقضها وتربصها ببعضها البعض، هو في حقيقة الأمر جزء من الهيمنة الإمبريالية الثالثة بأن تعم الفوضى الوطن العربي، ويجري اقتتال داخلي لا ينتهي ويصب لصالح الإمبريالية وأدواتها في المنطقة التي تأكلها شهوة السلطان، وهي التي تفجر الصراع الديني كجزء من مهمتها كي يكون إحراق الناتو لمصر أسهل منه في ليبيا وأسوأ مما كان في العراق[15].

استخلاصات ونتائج

سعى الاستعمار قبل خروجه من الوطن العربي إلى تجزئته، إلى كيانات متهالكة، بناءً على عُرف باتفاقية "سايكس بيكو"، حيث قُسمت على إثرها البلدان العربية جغرافياً وسياسياً، لتعزيز أو خلق الانقسام الوطني والوحدوي بين أبناء الأمة الواحدة. وبتشكل جامعة الدول العربية ككيان شكلي والذي جاء في سياق "رفع العتب" كمنظمة إقليمية حالت دون تشكل كيان قومي يوحد الأمة ويحمي مصالحها.

إن التكوين القسري للدولة القطرية التي فرضها الاستعمار، كان أحد أهم أسباب فشل الأمة العربية في التعبير عن هويتها، لذا فإن الخيار القومي هو الحل الوحيد لخروج العرب من نير الاستعمار، فالانتكاسات الكبرى التي عانى منها الوطن العربي، عبر تاريخه الماضي تصب في نتيجة واضحة، ألا وهي فشل خيار القطرية والعزلة التي شكلها الاستعمار وسعى لتعزيزها، ووضع أنظمة حكم شكلية، كانت بمثابة أداة للاستعمار، ونواه له في الدول العربية، إذ كانت تعمل بأجندته وتسعى لتنفيذ مصالحه، مقابل حمايته لها

[14]. المصدر السابق.

[15]. **بتصرف**. عادل سمارة، "ثورة وثورات مضادة تناقض الصحوات وتآلفها ضد العروبة"، مجلة كنعان، عدد 147 (2011): 9.

وبقائها في سدة الحكم، واستمرار سلطتها جيلاً بعد جيل، وكأنها تملكت البلاد فتحولت من سلطة رئاسية منتخبة إلى سلطة ملكية حاكمة.

لكن مع خروج الشباب العربي إلى الشوارع، أدركت تلك الأنظمة عدم قدرتها على إقناع المجتمع العربي والدولي بشرعيتها، وبسلطتها التي ظلت تحكم الشعب على مدى عقود بالقمع والاستبداد، ومصادرة الحريات العامة وحقوق الإنسان والانفراد بالسلطة، فلم يعد مقبولاً أن ترضى الشعوب بهذا الطغيان وهذا الفقر والجهل الذي تركته يعيش فيه.

ومع انطلاق شرارة الثورات العربية، انطلقت الآمال التي راودت الكثيرين باستعادة الحلم العربي بالوحدة والتخلص من التبعية الاستعمارية، وإعادة تشكل الخريطة السياسية خاصة فيما يخص الكيان الصهيوني في المنطقة، والعلاقات والاتفاقات الموقعة معه، لكن البعض كان ينظر للثورات على أنها ثورات ذات وطنية ذات مطالب براغماتية، حيث لم ترفع شعار الوحدة والقومية العربية، ولم تطالب بتحرير فلسطين أو قطع العلاقات ونبذ الاتفاقات مع الكيان الإسرائيلي وأميركا. لكن الأمور ما زالت تعيش تداعيات مختلفة ولم تشهد استقراراً حقيقاً بعد، لذا فإن البعض الآخر يرى أن حالة الوطنية هذه، ما هي إلا مرحلة مؤقتة لن تدوم طويلاً، وستكشف لاحقاً عن مرحلة أخرى ستأخذ فيها الحركة النضالية البعد القومي العربي، حيث تدرك أن لا مفر لها من العودة إلى دائرة الهوية العربية والانتماء القومي.

كما أن أي ثورة تحتاج لوقت ليس بالقصير، حتى تؤتي أُكلها، فلا يجب الاستعجال واستباق الوقت في الحكم على الأمور. ففي بلدان الثورات لا يمكن التوقع بأن تتخذ القيادات الجديدة قفزات سياسية كبيرة على المستوى الخارجي، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة مع "إسرائيل" وأمريكا، كما الحال مع مصر مثلاً، قبل أن تحاول ترتيب بيتها الداخلي والنظر في مختلف القضايا الاقتصادية والاجتماعية التي تخص الشعب الذي انتفض وثار مطالباً بها.

أما فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية والثورات العربية، فيمكن القول بأن العلاقة بين الثورات العربية والقضية الفلسطينية كانت تأثير وتأثر، فبداية لا يمكن تجاهل أثر صراع الفلسطينيين مع الاحتلال الإسرائيلي على مدى ما يزيد عن نصف قرن على الشعوب العربية، فالممارسات الإجرامية للاحتلال الإسرائيلي بحق الفلسطينيين وعجز الأنظمة العربية عن مساعدتهم، وتقاعسهم عن نجدتهم، بل وتخاذلهم في كثير من الأحيان، رآكم عبر السنيين حالة من النقمة الشعبية العربية على الأنظمة وممارساتها.

فعلى الرغم من استبشار البعض الذي يتقول بإحياء الثورات العربية المعاصرة، للبعد القومي للقضية الفلسطينية، رغم تغييب الشأن الفلسطيني عن ساحات الميادين ومطالب ثوراها، واقتصارها على القضايا الوطنية، بل حتى تراجع الاهتمام الإعلامي بها وتراجع مكانتها التاريخية في الخريطة السياسية، إلا أن البعض الآخر يشير إلى أن هذه حالة مؤقتة، وهي مرحلة ستكشف لاحقاً عن مرحلة تالية تنادي بالبعد القومي، بالتوازي مع الدعوة لحل المشكلات والأزمات القطرية.

ونستخلص من ما تقدم في البحث أن استعادة ارتباط القضية الفلسطينية بالبعد القومي العربي، مرهون بالتداعيات التي تحملها الثورات، ففي الوقت الذي يصعب فيه على الفلسطينيين أن ينأوا بأنفسهم عن ما يجري من متغيرات من حولهم في الوطن العربي، فكل المجريات والتحولات لابد وأنت تنعكس على مسألة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، لاسيما القادمة من الدول المجاورة، غير أنه ومن الأفضل أن لا يزج الفلسطينيون بأنفسهم في أي صراع أو تطور إقليمي، قد يطالهم منه ظلم جديد هم في غنى عنه. وعليه فإن التأثير الواقع على القضية الفلسطينية مرتبط بما ستستقر إليه الأمور في بلدان الثورات، وبمن ستؤول إليه مقاليد السلطة.

لقد بات واضحاً، بما لا يدع مجالاً للشك أن الثورات العربية التي قامت بها الشعوب وجاءت نتيجة لعقود من القهر والقمع والاستبداد من قبل الأنظمة الحاكمة، تحولت لمنبر للتيار الإسلامي والجماعات الإسلامية، التي قُمعت هي الأخرى طوال فترة حكم الرؤساء السابقة. وكثيراً ما يعبر المحللون عن خوفهم وقلقهم من هذا المجيء الإسلامي، بمرجعياته الأصولية والراديكالية تحت شعار الإسلام هو الحل، على تراجع مشروع استعادة الوحدة العربية على أساس قومي، بما يضعف المشروع الوطني الفلسطيني.

كما قد برز فيما تقدم دور التدخلات الخارجية، خاصة تلك التي كانت لها مصالح وأجندات في المنطقة تنفذ من قبل الفئة الحاكمة والثلة المستفيدة، فرغم أن أحداً لم يستطع التكهن أو التوقع بانتفاض الشارع العربي وقيادته لثورات عربية انتقلت شرارتها كالنار في الهشيم في عدد من الدول، فقلبت الموازين وأطاحت بعدد من الحكام، وما زال بعدهم ينتظر، إلا أن ذلك لا يعني أن الغرب الذي فوجئ كما فوجئ العرب أنفسهم بهذه الثورات، لم يسعى لركوب موجة الثورات لحرفها عن مسارها الصحيح، أو على أقل تقدير حصد نتاجها لنفسه، والبحث فيها عن مكان يضمن له مصالحة وأجنداته التي ظلت قائمة ومعمول بها على مدار العقود الماضية من قبل السلطات التشريعية.

وفي كل الأحوال فإن تداعيات الثورات ستعيد ترتيب التوازنات والعلاقات العربية مع الغرب وتهدد مصالحه ونفوذه. هنا نستنتج أنه لابد من الاقتناع والتصديق بأن تاريخ العلاقة مع الغرب الرأسمالي هو تاريخ صراع: عدوان من جانبه ودفاع من جانبنا، وهنا يتوجب تصويب الأمور قبل كل شي، ولابد من القطع النهائي معه، إذا ما أردنا جني ثمار الثورات، وعدم إضاعة التضحيات التي قدمت في سبيل نيل الحرية واستقلال القرار السياسي.

قائمة المصادر والمراجع:

"الثورات العربية ومستقبل العمل القومي". *التعبير نت*. http://al-tabeer.com (تاريخ الاسترجاع 6 حزيران 2012).

"الحوار المتمدن". *حول مفهوم القومية*. http://www.ahewar.org (تاريخ الاسترجاع 10 حزيران 2012).

"الديمقراطية وحقوق الإنسان". *المفاهيم والتطبيقات في فلسطين*. http://www.phrmg.org. (تاريخ الاسترجاع 3 حزيران 2012).

"الفكر القومي العربي". *الثورات العربية ومستقبل العمل القومي*. http://www.alfikralarabi.org (تاريخ الاسترجاع 10 حزيران 2012)

"الوحدة العربية". *الوحدة العربية بين الأمس واليوم*. http://www.ibtesama.com (تاريخ الاسترجاع 3 حزيران 2012)

"مركز دراسات الوحدة العربية". *الحركات الاحتجاجية في الوطن العربي (مصر، المغرب، لبنان، البحرين.* tp://www.caus.org.lb(تاريخ الاسترجاع 3 حزيران 2012)

"نشرة بيرس". *الحسين بوخرطة*. http://nachrapress.com/ (تاريخ الاسترجاع 10 حزيران 2012)

"وكالة معاً الإخبارية". *الثورات العربية وصعود الإسلام السياسي وتأثيرهما على القضية الفلسطينية.* http://www.maannews.net (تاريخ الاسترجاع 15 حزيران 2012)

''التجمع اليمقراطي الموحد''. *الثورات العربية والقضيَّة القوميَّة... صحوة أم تراجُع.* http://www.unitedna.net (تاريخ الاسترجاع 6 حزيران 2012)

''الغد''. *التعريف الرسمي المحلي للربيع العربي*. http://www.alghad.com (تاريخ الاسترجاع 3 حزيران 2012)

''المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين- بديل''. *الثورة التونسية قطرية النشأة قومية الامتداد والأثر.* http://www.badil.org (تاريخ الاسترجاع 6 حزيران 2012)

''د.بوفولة بوخميس''. *أساسيات في المنهج الوصفي.* http://www.bmhh.med.sa/ (تاريخ الاسترجاع 10 تشرين ثاني 2011)

''صيد الفوائد''. *الاستبداد السياسي*. http://www.saaid.net (تاريخ الاسترجاع 3 حزيران 2012)

''طبيعي''. تعريف الفكر القومي العربي. http://www.tabee3i.com (تاريخ الاسترجاع 3 حزيران 2012).

''مركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية. *فقر الفكر السياسي الإسلامي*. http://www.dctcrs.org (تاريخ الاسترجاع 3 حزيران 2012).

''ناس''. *تعريف الوطن العربي*. http://nas.mbc.net/ (تاريخ الاسترجاع 3 حزيران 2012)

أبراش، إبراهيم. 2011. الثورات العربية وفلسطين استعادة البعد القومي أم تعزيز البعد الإسلامي، ***مجلة الدراسات الفلسطينية***، عدد 87 (صيف)، 7-15.

أمين، سمير. 1996. حول مفهوم القومية، ***مجلة المستقبل العربي***، عدد 213، 1-17.

برقاوي، أمين، الطيب تيزيني، على كنعان، محمد عيسى، مصطفى الجمال، جميل مطر، شوقي جلال، عبد الغفار شكر، محمد دويدار، محمود السيد، منير الحمش. 2004. ***الدولة الوطنية وتحديات العولمة***. القاهرة: مكتبة مدبولي.

تانيا، الخوري. 2012. الأماكن والأجساد في فنون الثورات العربية، ***مجلة الدراسات الفلسطينية 23***، عدد 90 (ربيع): 174-184.

الجابري، محمد عابد. ***وجهة نظر– نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر***، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 2004.

رفعت، سعيد. 2011. الثورات والانتفاضات العربية بين نوازع الفرقة وعوامل التعثر، ***مجلة شؤون عربية***، عدد 147(خريف)، 5-13.

سمارة، عادل. 2011. ثورة وثورات مضادة تناقض الصحوات وتآلفها ضد العروبة، ***مجلة كنعان***، عدد 147 (خريف)، 4-7.

سمارة، عادل. ***دفاعا عن دولة الوحدة – إفلاس الدولة القطرية رد – على محمد جابر الأنصاري***، رام الله، 2010.

سمارة، عادل. ***في القطرية والقومية والاشتراكية – مقدمات في تفكيك مفاصل الدولة القطرية***، رام الله، 2009.

الشويري، يوسف. ***مسارات العروبة – نظرة تاريخية***، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011.

عبد الله، إسماعيل صبري، 1978. العرب بين التنمية القطرية والتنمية العربية، ***مجلة المستقبل العربي***، عدد 9، 12-34.

العشري، نجاح. ***عبد الناصر وحركات التحرير العربي والإفريقي – فهم جديد لدور قائد ثورة يوليو في إشعال فتيل ثورات العرب والقارة السوداء، القاهر: مكتبة جزيرة الورد***. 2011.

مقصود، كلوفيس. 2000. القطرية والقومية معادلة التكامل والمسؤولية المتبادلة، ***مجلة شؤون عربية***، عدد 101، 23-34.